

الحسبة على ذوي السلطان في المشرق الإسلامي خلال العصر العباسي الأول

(132 – 232 هـ / 750 – 847 م)

The Hisbah of those in power in the Islamic East during the early
Abbasid era (132-232 AH / 750-847 AD)



د. سالم كربوعة*

مخبر الدراسات التاريخية والحضارية للأوراس والصحراء الشرقية عبر العصور، جامعة

محمد خيضر - بسكرة -

salem.karboua@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2026/02/27 تاريخ القبول 2026/05/24 تاريخ النشر 2026/06/08



ملخص: لقد أرست الشريعة الإسلامية قواعدها حتى أصبح لها مؤسسات خاصة تباشر رقابتها الفعالة والمباشرة على مختلف الميادين، هدفها حماية الإدارة من العبث والضياع ، باتباع أساليب ووسائل مختلفة تساعد على معرفة ما يدور في كواليس الإدارة، لحماية الدولة من الوقوع في قبضة الأقلية ، لذا كان لزاما على جهاز الحسبة أن يتولى هذا الشأن، ومن أمثلة ذلك ما قام به العباسيون فور قيام دولتهم سنة 132 هـ/ 750 م ، حيث بادر السفاح ومن بعده المنصور العباسي إلى تنظيم شؤون الدولة بالاهتمام بهذه الخطوة التي كان لها دور كبير في قوة الخلافة في عصرها الأول .

الكلمات المفتاحية: الحسبة ؛ العباسيون ؛ الرقابة ؛ الإدارة ؛ المشرق الإسلامي ؛

Abstract:

Islamic law has established its rules to the extent that it now has special institutions that exercise effective and direct control over various fields, with the aim of protecting the administration from abuse and waste, using

* المؤلف المراسل

various methods and means that help to reveal what is going on behind the scenes in the administration, in order to protect the state from falling into the hands of a minority. Therefore, it was incumbent upon the Hisbah to take charge of this matter. An example of this is what the Abbasids did immediately after the establishment of their state in 132 AH/750 AD, when Al-Saffah and, after him, Al-Mansur Al-Abbasi took the initiative to organize the affairs of the state by paying attention to this plan, which played a major role in the strength of the Caliphate in its early days.

key words: *the Hisbah* ; The Abbasids; Censorship ; Administration ; The Islamic East ;

مقدمة:

من ركائز الإدارة الإسلامية في العصر الوسيط في دول العالم الإسلامي مشرقا ومغربا خطة الحسبة، حيث يختصر ابن خلدون تعريفها في الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله، فقد أولتها الدول المتعاقبة اهتماما كبيرا فهي الميزان الحقيقي لاستقرار الدولة بجميع أجهزتها، وكانت من أولويات الخلفاء والأمراء والأئمة، ومثال ذلك الخلافة العباسية في عصرها الأول وهو أزهى وأقوى العصور، بحيث كانت الحسبة ترتبط مباشرة بالخليفة وفي كثير من الأحيان يكون هو مُتوليها.

والاهتمام الذي أولاه الخلفاء العباسيون الأوائل لخطة الحسبة انعكس على جميع أجهزة وخطط الدولة الأخرى، فكانت بمثابة الوسيط الرقابي الذي به يُراقب الوالي والوزير والقاضي في جميع أفعاله وتصرفاته، مما أدى إلى انتشار العدالة والانضباط في أداء المهام من طرف المسؤولين، فمن خلالها تُنقل أخبار كل هؤلاء إلى الخليفة الذي له الحق في العزل والحبس والمعاقبة بشتى الوسائل .

وفي مقالنا هذا اخترنا دور خطة الحسبة في رقابة عمال الدولة، ومراقبة الخليفة في حد ذاته من طرف العلماء كما سنأتي على بعض الأمثلة، كما عاجلنا دورها في مراقبة الولاة والقضاة وديوان المظالم، وأعطينا أمثلة حية تحدثت عنها المصادر التاريخية المختلفة، وركزنا على العصر العباسي الأول الذي كان محورا للدراسة .

ومنه طرح الإشكال التالي : كيف ساهم نظام الحسبة في مراقبة ذوي السلطان
والمناصب الرفيعة في الدولة خلال العصر العباسي الأول ؟

1 - نشأة خطة الحسبة في صدر الخلافة العباسية:

ظهر نظام الحسبة كخطة لها شأنها وتنظيمها في عهد الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور ، حيث استعمل عليها رجلا يقال له يحيى بن زكريا المحتسب، لكن هذا الأخير كما ذكر ابن الأثير كان يطعن في المنصور ويجمع العامة على ذلك فما كان من المنصور إلا أن قتله سنة 157 هـ / 773 م¹ ، ومما يدل على أن المنصور كان يمارس الاحتساب بنفسه ما نقله الطبري حيث قال : "كما كان عمال البريد في الآفاق يكتبون إلى المنصور أيام خلافته في كل يوم بسعر القمح والحبوب، وبسعر كل مأكول وبكل ما يقضي به القاضي في نواحيهم وبما يعمل به الوالي وبما يرد بيت المال من المال وكل حدث، وكانوا إذا صلوا المغرب يكتبون إليه بما كان في كل ليلة إذا صلوا الغداة، فإذا وردت كتبهم نظر فيها فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك وإن تغير منها شيء عن حاله كتب إلى الوالي والعامل هناك، وسأل عن العلة التي نقلت ذاك عن سعره..."².

برزت أهمية خطة الحسبة في خلافة بني العباس أكثر مع خلافة المهدي حيث ظهرت حركة الزنادقة الخطيرة فكان لا بد لها من جهاز يقاومها، حيث يروي الطبري في أحداث سنة 167هـ / 783 م ، أن المهدي جد في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم وولى أمرهم عمر الكلواذي³ ، كما اشتد الهادي إبنه في طلب الزنادقة فقتل منهم جماعة ومنهم "يزدان بن باذان" كاتب يقطين وابنه علي بن يقطين وجماعة من أهل النهروان⁴ ، وما يدل على أهمية خطة الحسبة في خلافة بني العباس والاهتمام الذي حظيت به في عهدهم ما ورد زمن الخليفة الرشيد الذي عين شجاع بن صبيح الجرجاني خطة الحسبة على هذه المدينة⁵.

2 - العلماء والحسبة على الخلفاء :

لقد حفل العصر العباسي الاول بجملة من مواقف المحتسبين التي خلدها التاريخ بمواقفهم الجليلة أمام السلاطين فلم يخش هؤلاء أولي الأمر في قول الحق، مستمسكين بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتطبيق شرع الله . وقد ذكر الإمام الغزالي قوله في شأن الحسبة على ذوي السلطان قوله " ولما علم المتصلبون في الدين أن أفضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر، وأن صاحب ذلك إذا قُتل فهو شهيد كما وردت به الأخبار، قدموا على ذلك مُوطنين أنفسهم على الهلاك ومُحتملين أنواع العذاب وصابرين عليه في ذات الله تعالى، ومُحتسبين لما يبذلونه من مُهجهم عند الله وطريق وعظ السلاطين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر⁶.

ومن أمثلة ذلك ما روي عن العالم والفقيه والمحتسب ابن ذئب⁷ لما كان في حضرة الخليفة ابو جعفر المنصور في مكة في موسم الحج، حيث سأله المنصور : ما تقول في يا بن أبي ذئب، فقال اعفني يا إمام، وبعد الإلحاح أجاب طلبه فقال: تسألني عن نفسك وأنت أعلم بنفسك ، وعسى أن أقول فيك مما فيك أنت والله الرجل الذي أمرَ على المسلمين أمرهم، ظلمتهم واعتديت عليهم وسفكت الدماء الحرام وأخذت الأموال من غير حلها ووضعتها في غير حقها، وأهلكت المسلمين والفقراء واليتامى والمساكين، فنصحه أصحابه بقتله والتخلص منه فقال المنصور : ويحكم هذا رجل قد بلغت منه صعوبة العبادة وقد سمع الحديث: إن أفضل الجهاد كلمة عدل قالها عند سلطان جائر يُقتل عليها⁸.

وذكر ابن قتيبة أنه "لما حج المنصور وكان بمنى جاءه سفيان الثوري⁹ وسليمان الخواص¹⁰ فقال أحدهما للآخر الا ندخل على هذا الطاغية الذي كان يُزاحمنا بالأمس في مجالس العلم عند منصور بن عمار والزهري فنكلمه ونأمره بحق وننهاه عن باطل فلعل أن يقع كلامنا موقعا ينفع الله به المسلمين ويأجرنا عليه، فقال الخواص إني أخشى أن يأتي

علينا منه يوم سوء ، فقال الثوري ما أخاف ذلك فإن شئت فادخل ، فدخل سليمان الخواص فنهاه ووعظه وذكره الله وكذلك فعل الثوري...¹¹.

وفي عهد الخليفة هارون الرشيد كتب الامام مالك إليه رسالة طويلة ينصحه فيها بالخوف من الله في الرعية ومما جاء في مُفتتحها " أما بعد فإنني كتبت إليك بكتاب لم ألك فيها رشدا ولم أدخرك فيه نُصحا وأدبا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتدبره بعقلك وردد فيه بصرك، وارعه سمعك ثم اعقله بقلبك واحضر فهمك ولا تعين عنه ذهنك فإن فيه الفضل في الدنيا ، وحسن ثواب الله تعالى في الآخرة... " ونص الرسالة فيه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يدل على حرص العلماء في الأخذ بالاحتساب على الخلفاء ونُصحهم وتوجيههم¹²

وفي هذا المقام نذكر أن الحسبة لم تقتصر على السوق والحياة العامة للناس فقد ذكر الشيزري أن " رجلا دخل على الخليفة المأمون ، فأمره بمعروف ونهاه عن منكر ، وأغلظ له في القول فقال له المأمون : يا هذا إن الله تعالى أمر من هو خير منك أن يُلين القول لمن هو شر مني فقال لموسى وهارون : فقولاً له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى " ثم أعرض عنه ولم يلتفت إليه¹³.

3 - الولاة والحسبة:

وقد ذكر الشيزري في الفصل الخاص بالاحتساب على الولاة قوله : ويقصد المحتسب مجالس الولاة والأمراء ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويأمرهم بالشفقة على الرعية والإحسان إليهم ويذكر لهم ما ورد في ذلك من الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وليكن في وعظه وقوله في ردعهم عن الظلم لطيفا ظريفا ، لين القول بشوشا غير جبار ولا عبوس، قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم " وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ "¹⁴.

كان للولاة دور كبير في اختيارهم موظفيهم التابعين لولاياتهم بالتعيين والعزل تبعاً للحالات الطارئة، كما كان لهم دور في ممارسة الحسبة، وعلى سبيل المثال لا الحصر ذكر الطبري في أحداث سنة 140 هـ / 757 م، أن والي خراسان عبد الجبار بن عبد الرحمان قبض على جماعة من الناس ادعوا أحقية ولد علي بن أبي طالب بالخلافة منهم مجاشع بن حريث وأبو المغيرة صاحب بخارى فقتلتهما وضرب من معهما بالسياط وحبس جماعة أخرى¹⁵.

وتعدى احتساب الولاة على الأمر بالمعروف إلى الضرب والمعاقبة بالسياط، فهذا عيسى بن موسى والي الكوفة بلغه أن مسؤوله على سواد العراق يسرق أموال بيت المال فأرسل إليه من ضربه بخمس وسبعين سوطاً¹⁶، "وفي عهد الخليفة هارون الرشيد برز أكثر دور الوالي في خطة الاحتساب بحيث أصبح يشرف على دار السكة¹⁷ التي ضرب عليها اسم الخليفة ولا شك أن هذا الإجراء كان لمنع التزوير في العملة.

وفي حادثة أخرى في عهد الرشيد تؤكد على أن الوالي يمارس مهنة الاحتساب مذكرو الكندي من أن والي مصر يزيد بن عمرو الطائي كتب إلى الرشيد يشكو إليه قاضيه أبو طاهر عبد الملك بن محمد الحزمي الذي تولى قضاء مصر زمن الخليفة الهادي حيث قال: أنه كان يتفقد الأحباس بنفسه ثلاثة أيام في كل شهر ويأمر بإصلاحها وكنسها من التراب ومعه طائفة من عماله عليها فإن رأى خللاً في شيء منها ضرب المتولي لها عشر جلدات... "ثم إن الناس شكوا هذا القاضي إلى الرشيد رغم كل ما له من فضل وكتب هذه الشكوى والي مصر المذكور فأعفي عبد الملك عن منصب القضاء¹⁸.

أما في عهد المأمون فقد عين على مصر والياً اسمه كندر نصر بن عبد الله وأرسل إليه صاحب الشرطة يقال له ابن بسطام، لكن تبين أن هذا الأخير يتلقى الرشاوي فأمر الوالي المذكور بضربه بالسياط في صحن المسجد الجامع¹⁹.

4 - القضاة و الحسبة:

القاضي هو نائب الخليفة ويستمد سلطاته مباشرة منه حيث ينظر في كل ما يدخل تحت سلطة القضاء، كما أن له الحق في مراقبة كُتّابه وأعوانه ومحاسبتهم حيث يقول الماوردي "تصفح شهوده وأمنائه واختيار النائبين عنه من خلفائه في إقرارهم والتعويل عليهم مع ظهور السلامة والاستقامة وصرفهم والاستبدال بهم مع ظهور الجرح والخيانة...."²⁰.

كان للقضاة في العصر العباسي الأول دور هام في مجال الحسبة، بحيث لم يقتصر دورهم على الحكم بين المتخاصمين فقط بل تعدى دورهم إلى الإشراف على الخراج وبيت المال ودور الضرب والإشراف على الأحباس أيضا كما يوثق ذلك المؤرخون. ومن أمثلة ما أورده المؤرخون ما حدث مع القاضي أبي جعفر الحارث بن الجارود العتكي الذي ولاه المنصور قضاء الموصل وأضاف إليه خراجها²¹، كما وردت شكاوى للمنصور من أهل البصرة على القاضي سوار الذي أشرف على الأحباس وتشدد في أحكامه وحذر المنصور من سطوتهم وثورتهم، حيث ذكر وكيع أنه كان على علم بسيرة وكيع فعينه عليهم²².

ويتضح دور القاضي في الحسبة أكثر زمن الخليفة الرشيد ففي سنة 177 هـ / 793 م عين الرشيد على قضاء مصر محمد بن مسروق الكندي الذي كان كما يذكر صاحب كتاب الولاة والقضاة أنه "كان أعورا فأظهر تجبرا عظيما وباعد الخصوم ، وكانت ولاية مصر يحضرون القضاة إلى مجالسهم كما يحضرون الفقهاء اليوم ..."²³ ، وفي زمن خلافة المعتصم تولى قضاء مصر محمد بن الليث الخوارزمي سنة 226 هـ / 841 م الذي لم يعجبه ما قام به القاضي الذي سبقه وهو هارون بن عبد الله حيث اتهمه بسرقة أموال بيت مال المسلمين فناظره، ولما ثبت له أنه أعطى المفتاح لغير أهله استخلص منه الأموال²⁴.

5- البريد والحسبة:

يعتبر الخليفة المنصور أول الخلفاء اهتماما بنظام البريد هذا الجهاز الذي تعددت مهامه، خاصة تقصي أخبار الولايات والأقاليم عصر بني العباس، وتشير المصادر إلى أن المنصور كان يتقصى أخبار عماله عن طريق ما يرده عبر البريد، الذي يعتبر طريقا للحسبة على الموظفين في شتى أنحاء المملكة.

ذكر "الأربلي" أن المنصور كان إذا صلى العشاء نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف وشاور سُمّاره، وكان ولاية الكور يكتبون إليه كل يوم بسعر القمح والحبوب والآدام وكل مأكول وكلما يقضي به القضاة في نواحيهم وما يرد إلى بيت المال، وكل ما يحدث، فإذا صلى المغرب يكتبون إليه بما كان ذلك اليوم فإذا نظر في كتبهم فإن رأى الأسعار على حالها سكت وإن تغير منها شيء كتب إلى العامل عن العلة...²⁵، ومما ذكره الاسكافي عن المنصور أنه قال يوما "... ما كان أحوجني أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم، قيل يا أمير المؤمنين منهم قال: هم أركان الملك، لا يصلح الملك إلا بهم، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم ... أما أحدهم فقاض ... والآخر صاحب شرطة ...، والثالث صاحب خراج ... ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة ... صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة"²⁶.

مما ذكر عن المنصور أنه لا يتوانى في محاسبة من يتجرأ على التعدي على حقوق الرعية، فقد ذكر البيهقي أنه كتب يوما إلى ابنه المهدي وهو بالري يعاتبه على عشرين ألفا من الدراهم أهداها للشاعر المؤمل المحارب حينما امتدحه فبلغ ذلك المنصور ...²⁷، ما يدل على حرص المنصور على المحاسبة.

وأول ما تولى الخليفة المهدي عرش أبيه اهتم بالبريد أيما اهتمام حيث أمر بإقامة البريد بين مكة والمدينة وبغداد واليمن، وأمر لذلك بالبغال والإبل لنقل الرسائل²⁸، ولا شك أن هذا الاهتمام نابع من رغبة أبيه المنصور الذي أوصاه بتقصي أخبار المملكة قائلًا

"... ولا تدوم نعمة السلطان وطاعته إلا بالمال، ولا تقدّم في الحياطة بمثل نقل الأخبار ...". بل وأوصاه برعاية وحفظ أمن البلاد حينما قال له : " واجتهد وثمر فيها ، واعدد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، و رجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل"²⁹.

ولم يكن البريد أقل شأنًا من الاهتمام زمن الخليفة الرشيد فقد ذكر الحموي أن الرشيد ورده البريد من خراسان في شأن الفضل بن يحيى وهذا الأخير كان جالسا بين يديه، وفحوى الرسالة أن الفضل انشغل عن الناس بأمر الصيد والإدمان على المملذات ، فرمى الرشيد الرسالة بين يدي والده، حيث كتب على ظهرها : حفظك الله يا بُني وأمتع بك ... فعاود ما هو أزين بك فإنه من عاد إلى ما يُرَبِّيه أو يُشِينه لم يعرفه أهل دهره إلا به ، والسلام "، وكتب تحتها الأبيات التالية:

أنصب نهارا في طلاب العُلا	واصبر على فقد لقاء الحبيب
فكابد الليل بما تشتهي	فإنما الليل نهار الأريب
ولذة الأحق مكشوفة	يسعى بها كل عدو رقيب ³⁰

وفي عهد الخليفة الأمين كان صاحب البريد يحضر مجالس الولاة وينقل أخبارهم إلى الخليفة ، إلا أن ذلك لم يمنع بعض التجاوزات التي كانت تحصل، ونقصد بذلك الرشاوي التي كان يتلقاها لتجنب نقل أخبارهم والتستر عليهم في حضرة الخليفة، وذلك ما حدث مع الوالي الحسن بن عمر والي الموصل، حيث دفع رشوة لصاحب بريد في مجلسه لكي لا ينقل أخباره إلى الخليفة الأمين³¹، وهنا يمكن القول أن هذا راجع إلى فترة الضعف التي عاشتها الخلافة في صراع الاخوة على عرش الخلافة.

وكذلك اهتم المأمون بالبريد أشد الاهتمام خاصة بعد التجربة التي مر بها مع وزيره الفضل بن السهل الذي قطع عنه الأخبار ، حيث يروي المؤرخون في هذا الصدد أخبار الكتب التي أرسلها المأمون إلى جميع الأقطار عن طريق البريد، ما يوثق أهمية هذا الجهاز وأهميته في الحسبة³²، ويُروى أن صاحب بريد همدان كتب إلى المأمون في من سبقه في

تولي منصب البريد الذي قبله ومعه صاحب الخراج حيث قاما بسرقة مائتي ألف درهم من الخزينة واقتسماها³³، وإن لم يستحسنها المأمون فقد اعتبرها سعاية إلا أن ذلك يدخل في إطار الحسبة على أموال المسلمين.

كما سبق يتبين أنه كان لجهاز البريد دور كبير في الحسبة خلال العصر العباسي الأول، فكان أصحاب البريد عينا للخليفة على الولاة و القضاة في أقاليم الخلافة العباسية المختلفة مشرقا ومغربا، وكان الهدف من هذا تصحيح الأخطاء قبل حدوث التمردات والانشقاقات، وهذا ما أوضحه أبو يعلى الفراء في كتابه الأحكام السلطانية، حينما تعرض لمهمة صاحب البريد، والتي يتمثل أهمها في أن يلزم صاحب البريد الأخبار بما فعله العامل من صحيح وفساد لأن خبره خبر إنهاء³⁴.

6- الحسبة وديوان المظالم :

كان لجهاز المظالم دور كبير في الحسبة خلال العصر العباسي الأول حيث يُروى أن المنصور كان يجلس بنفسه للمظالم ، وقد أنشأ لهذا الغرض ديوانا سماه ديوان الحوائج تطرح فيه المظلمات واحدة تلي الأخرى³⁵.

لا شك أن القصص التاريخية كثيرة في شأن المظالم وفي شأن محاسبة العمال في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور، وهنا نقصر على ذكر البعض منها، فقد روى الأبشيهي " أن رجلا من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيعة له فأتى الى المنصور وقال: أصلحك الله يا أمير المؤمنين أذكر لك حاجتي أم أضرب لك قبلها مثلا ... فإن أنصفتني أو رفعت حاجتي إلى الله فإنني متوجه إلى بيته وحرمة، فقال المنصور بل ننصفك ، وأمر أن يكتب إلى واليه برد ضيعته إليه"³⁶ ، وهذا الأربلي يحكي عن صفاء المنصور فذكر "أنه إذا مضى الثلث الأول من الليل فقام فأصبغ الوضوء وصف في محرابه حتى يطلع الفجر ووقع إلى عامل من عماله : قد كثر شاكوك وقل شاكوك فإما اعتدلت وإما اعتزلت"³⁷.

وقد شمل هذا الاجراء أجزاء المملكة العباسية شرقها وغربها حيث يروي الطبري أن المنصور في موسم الحج أمر صاحب شرطته بأن ترفع حاجات الناس وقصصهم إليه³⁸، كما كان المنصور يشدد على عماله الاستماع الى المظلمات وإعادة التدقيق فيها وفي هذا أمثلة كثيرة خصص لها ابن عبد ربه في عقده فصلا خاصا بها³⁹.

حينما نتحدث عن المظالم في خلافة بني العباس يرتبط ذلك بالخليفة المهدي الذي يعتبر أول من نظم أمرها ونظر فيها على الوجه الصحيح، فقد ذكر المسعودي أن المهدي أول من افتتح أمره بالنظر في المظالم وإنصاف المظلوم⁴⁰، كما أكد ابن الأعرج على أن المهدي كان يجلس بنفسه لرد المظالم لأصحابها في حضرة العالم سليمان بن وهب⁴¹.

وكان هناك من ينوب عن المهدي في رد المظالم إلى أهلها، حيث روى الطبري أن الخليفة المهدي ولى ابن ثوبان المظالم فكان يجلس للناس بالرصافة فإذا ملأ كساءه رقاعا (رسائل التظلم) رفعها إلى المهدي⁴²، حتى أن المهدي كان يعزل العمال مهما كانت صفتهم بسبب المظالم الكثيرة التي كانت تصله من الرعية، ومثال ذلك ما حصل مع قاضيه على مصر اسماعيل بن اليسع الكندي حيث اشتكى منه الليث بن سعد للخليفة المهدي في مسألة الأحباس فعزله المهدي عن قضاء مصر⁴³.

وفي عهد الهادي استمر الحال على ما كان في عهد أبيه فيروي المؤرخون " أنه دخل عليه يوما ابراهيم الحارثي وقال له : يا أمير المؤمنين إن العامة لا يستقيم أمرها ما لم تجلس للمظالم ... فأمر برفع الستور ورفع وفتحت الأبواب فدخل الناس كافة، ولم يزل ينظر في المظالم إلى الليل..."⁴⁴، ما يدل على أهمية ديوان المظالم في نظام الحسبة في عهد كل خلفاء العصر العباسي الأول، حتى أن الهادي كان يتخلف عن أوامر أمه للنظر في حاجات الناس، حيث اعتلت يوما فركب للذهاب إليها فقال له وزيره : "ألا أدلك يا أمير المؤمنين على ما هو أنفع من عيادتها، وأجلب لعافيتها فقال نعم قال: تجلس للمظالم، فقد احتاج الناس إلى ذلك..."⁴⁵.

وكان الرشيد أشد خلفاء بني العباس في محاسبة عماله وقضاياه على المملكة فهذا قاضي البصرة معاذ بن معاذ العنبري اشتكى منه أهل البصرة للرشيد لسوء سيرته معهم، فكتب بأمر إشخاصه إلى بغداد ومعه وجوه البصرة ليشهدوا فيه ، ورغم ما قدموه من ثناء عليه إلا أن الرشيد قام بعزله تفاديا لأي ثورة من أهل البصرة⁴⁶، كما لا ننسى دور أسرة البرامكة في تولي مهمة الحسبة في عهد الرشيد، ومنهم يحيى بن خالد البرمكي الذي تولى عن الرشيد مهمة محاسبة العمال والولاة، ومن ذلك قصة التنوخي حينما ذكر أن الفضل بن الربيع دخل على يحيى بن خالد البرمكي فوجده جالسا للحوائج وابنه جعفر جالسين بين يديه يوقع الرقاع التي تعرض عليه⁴⁷.

ويؤكد الجهشباري على هذا حينما ذكر أن يحيى وابناه جعفر والفضل كانا يجلسان لحوائج الناس جلوسا عاما في كل يوم إلى انتصاب النهار، ينظرون في أمور الناس وحوائجهم، كما تظلم أهل مصر للرشيد من عامله موسى بن عيسى الهاشمي فأمر به فأحضر إليه وحاسبه الرشيد حسابا شديدا وعزله ، بل إن الرشيد و لاهتمامه بهذه الخطة ولى عليها رجالا في العاصمة بغداد يقومون بأنفسهم في النظر في المظالم⁴⁸.

يتجلى في عهد المأمون الاهتمام بالمحاسبة ورد المظالم إلى أهلها ما نقله الماوردي عن امرأة بالية الثياب دخلت على المأمون وهو جالس للمظالم حتى كادت الشمس تزول فسلمت عليه وقالت :

يا خير منتصف يُهدى له الرشيد ويا إماما به قد أشرق البلد
تشكو إليك عقيد الملك أرملة عدا عليها فلن تقوى بها أسد
فابتز مني ضياعا بعد منعته طرا وفارق مني الأهل والولد

فأجابها المأمون :

في دون ما قلت عيل الصبر والجلد وأحرق اليوم مني القلب والكبد
هذا أوان صلاة الظهر اليوم فانصربي ثم أحضري لي في اليوم الذي أعد

والمجلس السبب إن يُقضى الجلوس لنا أنصفك منه وإلا المجلس الأحد

وبالفعل وفى المأمون وعده للمرأة فقد جلس لها يوم الأحد وكان أول من ناداها لعرض مظلمتها، وكان من اشتكت عليه العباس ابن الخليفة المأمون، رفعت صوتها عليه فأسكتها يحيى بن أكنم فقال له المأمون : دعها فإن الحق أنطقها والباطل أسكتها، فما كان المأمون إلا أن أنصفها ورد عليها ضيعتها⁴⁹.

ويظهر أن مجلس المحاسبة الذي كان يحضره المأمون شخصيا كان أكثر تنظيما من ذي قبل، فكان يحضره أيضا الوزير و بعض وجوه العلماء والقضاة، وكان الوزير يقرأ على الخليفة الرقاع الخاصة بالمظالم⁵⁰، وتعدى الأمر إلى عزل الولاة عن مناصبهم ومحاسبتهم أشد الحساب، فهذا والي جرجان لما بلغ المأمون أنه يتظلم على الرعية أمر قاضيه بعزله حيث ذكر أذاه فقال له المأمون: "قد عزلناه عنك وعن أهل بلدك فلا بد له عليكم⁵¹.

وقد كان من صفات المأمون الثبوت من المظلمات التي ترده من الرعية في حق العمال والولاة والقضاة، فهذا محمد بن صالح الهمداني من وجوه الموصل تظلم واشتكى للمأمون من والي الموصل السيد بن أنس الذي قتل إخوته فبرر للمأمون بأنهم خرجوا عن حكمه وأدخلوا الخوارج إلى الموصل، وبرغم ما فعل فقد رفضت شكوى الهمداني وعفا المأمون عن والي المذكور⁵².

أما في عهد المعتصم فقد واصل على نفس نهج أخيه فيذكر المؤرخون أنه كان يجلس يوما للمظالم أطلق عليه إسم "يوم الموكب"، كما تولى للمعتصم ديوان المظالم أحمد بن أبي ذؤاد⁵³، وكان المعتصم يتخذ من داره مجلسا للمحاسبة لا يحضره إلا خاصة الدولة، حيث ذكر ذلك الطبري في معرض حديثه عن محاكمة الأفشين الذي تمرد على الخلافة العباسية⁵⁴.

لا شك أن الحديث عن الحسبة وعلاقتها بالمظالم موضوع يطول التفصيل فيه، وكما رأينا في الأمثلة السابقة مدى اهتمام خلفاء العصر العباسي الأول بهذه الخطة لأهميتها في دولة بني العباس، فكان في كثير من الأحيان الخليفة هو من يتصدر للمظالم ومحاسبة ومعاينة المظلم عليهم .

الخاتمة :

في خاتمة هذا البحث يمكننا أن نستخلص مجموعة من النتائج على ضوء ما جاء في المصادر التاريخية التي عالجت الموضوع:

أن الحسبة في العصر العباسي الأول كانت مهمة الخليفة الأولى معنا للانزلاقات والتمردات التي تضر بالدولة عكس العصور العباسية الأخرى كما شملت الحسبة فئة القضاة والوزراء والعمال وكبار الدولة ، بحيث كان الكل سواسية أمام القضاء العباسي .

لقد كان المحتسب يُختار ممن تتوفر فيهم الشروط، كما كان للعلماء دور هام في ممارسة مهنة الحسبة اتباعا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم .

لم يمنع خلفاء بني العباس شساعة دولتهم مراعاة تظلم الولاة على الرعية، بل كان البريد أهم ديوان يتم من خلاله تتبع أحوال الولايات والأقاليم كما رأينا في عديد الأمثلة ميزة أخرى اشتملت عليها خطة الحسبة وهي أن الوزراء وكبار الدولة كانوا يخضعون للمحاسبة بغض النظر عن مرتبتهم ومكانتهم لدى الخليفة و الدولة، وهو ما رأيناه في عديد الأمثلة .

كان للرعية الحق في التظلم على أوضاع الدولة المختلفة، كما كان للنساء أيضا حق في عرض مظلماتهم على الخليفة كما حدث في عهد المأمون .

إن موضوع الحسبة وعلاقتها بالجانب الإداري موضوع مهم جدا، وما أحوجنا في عصرنا الحالي إلى هذا النوع من التنظيم، فمن خلاله يمكن القضاء على كثير من مظاهر

الفساد الإداري، وكسب رضا العامة على تسيير المؤسسات باختلافها في عصرنا الحالي ،
و حتى الجانب الأخلاقي الذي يكمن حله في تشديد الرقابة عليه للمحافظة على
مكتسبات الأمة الأخلاقية.

الهوامش:

¹ - أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج 5، ط 1، تحقيق: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1407 هـ / 1987 م، ص ص 212 - 213 .

² - أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، ج 8 ، ط 2 ، تحقيق: أبو الفضل محمد إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ، مصر، 1387 هـ / 1967 م ، ص 96 .

- الطبري، نفس المصدر، ص 165 .³

- المصدر نفسه، ص 190 .⁴

⁵ - أبو القاسم حمزة بن يوسف بن إبراهيم بن موسى السهمي، تاريخ جرجان، ط 4، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، دار عالم الكتب، بيروت ، لبنان، 1407 هـ / 1987 م ، ص 228 .

⁶ - أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط 1، دار ابن حزم ، بيروت، لبنان، 1426 هـ / 2005 م، ص 821 .

⁷ - ابن ذئب : (80 - 159 هـ) محمد بن عبد الرحمان بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب ، كان فقيه أهل المدينة بعث إليه المهدي ثم انصرف من بغداد فمات بالكوفة وكان ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأمه بُريهة بنت عبد الرحمان بن الحارث بن أبي ذئب، أنظر ، أبي عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري (156 - 236 هـ)، كتاب نسب قريش، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، 1951 م ، ص 423 .

⁸ - أبي سليمان محمد بن عبد الله الربيعي المعروف بابن زبر، أخبار ابن أبي ذئب، ط 1، تحقيق: أبي هاشم إبراهيم بن منصور الهاشمي الأمير، مؤسسة الريان، جدة، المملكة العربية السعودية، 1425 هـ / 2004 م ، ص ص 57 - 58

⁹ - سفيان الثوري: سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، من بني ثور بن عبد مناة من مضر أبو عبد الله ، أمير المؤمنين في الحديث، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى، ولد ونشأ بالكوفة وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم فأبى وخرج من الكوفة سنة 144 هـ فسكن مكة والمدينة، ثم انتقل إلى البصرة ومات فيها مستخفياً، أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج 3 ، ط 15 ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 2002 م ، ص ص 104 - 105

¹⁰ - سليمان الخواص: أنظر ترجمته وأخباره، أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، الأردن، 2004 م، ص 1909 ، ترجمة رقم 2353

- ، وأنظر أيضا: أبي نعيم أحمد بن عبد الله، الاصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مج 8، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1416 هـ / 1996 م، ص 276 - 277، ترجمة رقم 407.
- 11 - أبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء، ج 2، ط 1، تحقيق: علي شيري، دار الأضواء، بيروت، لبنان، 1410 هـ / 1990 م، ص 193 - 194.
- 12 - أنظر نص الرسالة كاملة، إبي عبد الله مالك بن أنس، رسالة الإمام مالك في السنن والمواظع و الآداب كتبها الى أمير المؤمنين هارون الرشيد ووزيره يحيى بن خالد البرمكي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط 2، 1373 هـ / 1954 م، ص 6 وما بعدها
- 13 - عبد الرحمان بن نصر الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: السيد الباز العريني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 1365 هـ / 1946 م، ص 09.
- 14 - الشيزري، المصدر السابق، ص 115
- الطبري، المصدر السابق، ج 7، ص 503.¹⁵
- 16 - محمد بن خلف بن حيان وكيع، أخبار القضاة، ج 3، ط 1، تحقيق: عبد العزيز مصطفى المراغي، مكتبة الاستقامة، القاهرة، 1369 هـ / 1950 م، ص 97 - 98.
- 17 - تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقرئ، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ط 1، دراسة وتحقيق: كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، مصر، 1427 هـ / 2007 م، ص 132 - 133.
- 18 - أبي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي الولاة والقضاة، ط 1، تحقيق: محمد حسن محمد حسن اسماعيل و أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424 هـ / 2003 م، ص 276 - 277.
- الكندي، المصدر السابق، ص 144 - 145.¹⁹
- 20 - إبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط 1، تحقيق: أحمد مبارك البغداد، مكتبة ابن قتيبة، الكويت، 1409 هـ / 1989 م، ص 95.
- 21 - أبي زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم الأزدي، تاريخ الموصل، تحقيق: علي حبيبة، لجنة إحياء التراث الاسلامي، الجمهورية العربية المتحدة، القاهرة، 1387 هـ / 1967 م، ص 199.
- وكيع، المصدر السابق، ج 2، ص 58.²²
- الكندي، المصدر السابق، ص 283.²³
- المصدر نفسه، ص 322.²⁴
- 25 - عبد الرحمان سنيط قتيبو الأربلي، الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، ط 2، مكتبة المثنى، بغداد، 1964 م، ص 61 - 62.

- 26 - محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي، كتاب **لطف التدبير**، ط2، تحقيق: أحمد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1399 هـ / 1979 م، ص 12 - 13 .
- 27 - الشيخ إبراهيم بن محمد البيهقي، **المحاسن والمساوئ**، دار صادر، بيروت، ص 246 .
- 28 - تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، **الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك**، ط1، تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، 1420 هـ / 2000 م، ص 76 .
- الطبري، المصدر السابق، ج8، ص 71 - 72، 106. 29
- 30 - أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، مج1، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ص 28 .
- الأزدي، المصدر السابق، ص 327. 31
- أنظر على سبيل المثال لا الحصر، الطبري، المصدر السابق، ج8، ص 245 وما بعدها. 32
- البيهقي، المصدر السابق، ص 120. 33
- 34 - أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي، **كتاب الأحكام السلطانية**، تحقيق: محمد حامد الفقي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1421 هـ / 2000 م، ص 250 .
- 35 - أنظر سيرة المنصور، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ط2، **تاريخ الخلفاء**، تحقيق: محمد غسان، دار المنهاج، بيروت، لبنان، 1434 هـ / 2013 م، ص 42 وما بعدها،
- 36 - شهاب الدين بن أحمد بن أبي الفتح الأيشي، **المستطرف في كل فن مستظرف**، تحقيق: إبراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية، مصر، ص 117 - 118 .
- الأربلي، مصدر سابق، ص 62. 37
- الطبري، مصدر سابق، ص 111. 38
- 39 - للمزيد أنظر: أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، **العقد الفريد**، مج4، تحقيق: محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، 1372 هـ / 1953 م، ص 262 وما بعدها .
- 40 - أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج3، ط1، تحقيق: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1425 هـ / 2005 م، ص 259 .
- 41 - أبي الفضل محمد بن الأعرج، **تحرير السلوك في تدبير الملوك**، تحقيق: فؤاد عبد المنعم، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ص 40، أنظر أيضا: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، المطبعة الرحمانية، مصر، 1345 هـ / 1927 م، ص 131 .
- الطبري، مصدر سابق، ص 74 - 75. 42
- الكندي، مصدر سابق، ص 268، ترجمة رقم 162. 43

44 -ظهر الدين علي بن محمد البغدادي المعروف بابن الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تحقيق: مصطفى جواد، المؤسسة العامة للطباعة، بغداد، 1390 هـ / 1970 م ، ص ص 122 - 123 .

45 -محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، التذكرة الحمدونية، ط1، مج1، تحقيق: إحسان عبس وبكر عباس، دار صادر، بيروت، 1996 م، ص 435 .

-وكيع، مصدر سابق، ج2، ص ص 149 - 150 .⁴⁶

47 -أبي علي المحسن بن علي التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ط2، مج 8، تحقيق: عبود الشاذلي، دار صادر ، بيروت، 1995 م، ص 194 .

48 -أبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، كتاب الوزراء والكتّاب، تحقيق: حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت، لبنان، 1408 هـ / 1988 م، ص ص 114 ، 139 .

49 -أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، نصيحة الملوك، ط1، تحقيق: خضر محمد خضر، مكتبة الفلاح، الكويت، 1403 هـ / 1983 م من ص ص 212 - 213 .

أبي الفضل أحمد بن طاهر طيفور، كتاب بغداد المستوعب لفترة المأمون، دار الجنان، بيروت، لبنان، 1908 م، ص ص 59 - 60 ،أنظر أيضا: الأربلي، مصدر سابق، ص ص 189 - 190 .⁵⁰

- السهمي، مصدر سابق، ص 29 .⁵¹

-الأزدي، مصدر سابق، ص ص 353 - 354 .⁵²

- ابن خلكان، مصدر سابق، مج1، ص 86 .⁵³

- الطبري، مصدر سابق، مج9، ص ص 108 - 109 .⁵⁴